بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العاشر

١٣ / ٠٤ / ١٤٤٠

فصلٌ

والمقصود أنّ القلب لمّا تحوّل لهذا السفر، طلبَ رفيقًا يأنس به في السفر، فلم يجد إلا معارضًا مناقضًا، أو لائمًا بالتأنيب مصرّحًا ومُعرّضًا، أو فارغًا عن هذه الحركة مُعرِضًا، وليت الكلّ كانوا هكذا، فلقد أحسن إليك من خلّاك وطريقك ولم يطرح شرّه عليك، كما قال القائل:

إنّــا لفــي زمــنٍ تَــركُ القبــيح بــه ... مِــن أكثــرِ النــاسِ إحســانٌ وإجمــال

وإذا كان هذا المعروف من الناس، فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة علىٰ هذا السفر بالإعراض، وترك اللائمة والاعتراض، إلا ما عسىٰ أن يقع نادرًا فيكون غنيمةً باردةً لا قيمة لها، وينبغي ألا يتوقف العبد في سيره علىٰ هذه الغنيمة، بل يسير ولو وحيدًا غريبًا، فانفراد العبد في طريق طلبه دليلٌ علىٰ صدق المحبة.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فلا يزال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الرسالة القيمة والوصية النافعة، يتحدث عن السير إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، مهاجرًا إلىٰ ربه، مهاجرًا العبد إلىٰ ربه جل وعلا بإخلاص الدين له وإفراده بالعبادة، وإلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاتباع لهديه القويم، وسلوك صراطه المستقيم، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وفي هذا الفصل يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حاجة السائر في هذا الطريق إلىٰ الرفيق المعين، وهذه مسألة سبق أن أشار إليها، فإنّ الرفيق المعينَ لصاحبه فيه خيرٌ للصاحب عظيم، فإنّ الأخ بأخيه، إذا كان أخَ صدقٍ وأخَ إيمانٍ وأخ طاعة، قد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه موسىٰ وكليمه عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل، قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص:٣٥]، فالعبد في هذا الطريق بحاجة إلىٰ الرفيق الصالح، وإن عزّ الرفيق وقلّ فلا ييأس، بل يجتهد في تحصيل الرفيق المعين.

ثم في الوقت نفسه ينتبه إلىٰ هذا الذي نبّه عليه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، أن يحذر من المُخذّلين، لأنّ المُخذّلين كُثُر، فإذا ما اتجهت همة العبد إلىٰ سلوك هذا الطريق، لم يسلم ممن يُخذّله عنه ويثنيه، ولهذا يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (لمّا تحوّل لهذا السفر طلب رفيقًا يأنس به في السفر، فلم يجد إلا معارضًا مناقضًا، أو لائمًا بالتأنيب مصرّحًا ومعرّضًا، أو فارغًا عن هذه الحركة معرضًا)، فهذه أشياء يواجهها، أشبه ما تكون بالعقبات في طريقه وفي سيره،

فيجد المعارض المناقض، ويجد المؤنب تصريحًا أو تعريضًا، يجد هذا وهذا، فلا ينبغي له أن يلتفت لشيء من ذلك، بل عليه أن يحرص علىٰ لزوم طريق الاستقامة وإن قلّ الأعوان، وإن كثر المُخذّلون، عليه أن يحافظ علىٰ هذا الطريق، وأن يلزمه، وليتنبّه إلىٰ هذا الذي نبّه عليه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه ثمة من يَثني المرء بالمعارضة والمناقضة، وثمة من يثنيه باللوم تصريحًا أو تعريضًا، وثمة من هو فارغ من ذلك، فارغ عن هذه الحركة مُعرضًا، وهذا أيضًا يؤثر، هذا يؤثر عندما يكثر حول الإنسان من هم علىٰ هذه الصفة قد يؤثرون فيه، خاصةً إذا التفت إليهم.

قال: (وليت الكل كانوا هكذا، فلقد أحسن إليك من خلاك وطريقك)، أي: لم يُعارض وينتقد، ولم يؤنب ويعاتب لا تعريضًا ولا تلميحًا، وإنما خلاك وطريقك، هذا أحسن إليك، لأنك صرت في عافية منه وسلامة، لم يطرح عليك شره، فهذه عافية، والعافية سلامة وغنيمة تُحمد.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا كان هذا المعروف من الناس، فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة علىٰ هذا السفر بالإعراض، وترك اللائمة والاعتراض، إلا ما عسىٰ أن يقع نادرًا فيكون غنيمةً باردةً)، أي: ما يكون علىٰ سبيل التقويم والتسديد والإصلاح ونحو ذلك، (وينبغي ألا يتوقف العبد في سيره علىٰ هذه الغنيمة؛ بل يسير ولو وحيدًا غريبًا، فانفراد العبد في طريق طلبه دليلٌ علىٰ صدق المحبة).

ومن نظر في هذه الكلمات التي تضمنتها هذه الوريقة، علم أنها من أهمّ ما يحصل به التعاون علىٰ البرّ والتقوىٰ، وسفر الهجرة إلىٰ الله ورسوله، وهذا الذي قصد مُسطّرها بكتابتها، وجعلها هديته المعجّلة السابقة إلىٰ أصحابه ورفقائه في طلب العلم.

يعني هنا أوضح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنّ قصده رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الرسالة - التي جعلها هدية لرفقائه وزملائه في طلب العلم - قصد إيضاح هذا الطريق، الذي هو السير إلىٰ الله هجرةً إليه بالعبادةِ إفرادًا وإخلاصًا، وإلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاتباع اقتداءً وائتساءً، فهذا الذي قصده بهذه الرسالة، وصدّرها بقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٢]، منبهًا أنّ هذا أعظم ما ينبغي أن يكون التعاون عليه بين المُتآخين في الله.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد جعلها) هدية (المعجّلة السابقة إلىٰ أصحابه ورفقائه في طلب العلم)، وهذا فيه أن طلبة العلم ينبغي أن يكونوا بهذه الصفة، أن يتهادوا العلم، وقد كان الصحابة كذلك يلقىٰ الواحد منهم أخاه فيقول: ألا أهدي لك هدية؟ ثم يذكر له حديثًا سمعه عن الرسول عليه الصلاة والسلام، فيفرح بها غاية الفرح، فهذا التهادي هو من أثمن التهادي وأنفسه، تُهدي لأخيك مسألة علمية، حديثًا عن رسول الله ﷺ، أدبًا رفيعًا، قولًا لعالم من أهل التحقيق... إلىٰ غير ذلك، هذا من أحسن ما يكون التهادي به، أيضًا تهادي كتب أهل العلم، هذا

كله من الأمور التي ينبغي أن تكون بين طلاب العلم، تأسيًا بالصحابة ومن اتبعهم بإحسان، فهو جعلها هدية لرفقائه في طلب العلم.

وأشهد الله -وكفىٰ بالله شهيدًا- لو تُوافي من أحدٍ منهم لقابلها بالقبول، ولبادر إلىٰ تفهّمها وتدبّرها، وعدّها من أفضل ما أهدىٰ صاحبٌ إلىٰ صاحبه، فإنّ غير هذا من ماجَرَيانات الرّكب الخبريّة - وإن تطلعت النفوس إليها - ففائدتها قليلة، وهي في غاية الرّخص لكثرة جالبيها، وإنما الهدية النافعة كلمةٌ من الحكمة يهديها الرجل إلىٰ أخيه المسلم.

يعني يقول هذه الكلمات والنصيحة التي سطرها هنا، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (أنها لو توافي من أحدٍ منهم لقابلها بالقبول)، وهذا من أيضًا حسن ظنه برفقائه وزملائه في طلب العلم، (ولبادر إلىٰ تفهّمها وتدبّرها، وعدّها من أفضل ما أهدىٰ صاحبٌ إلىٰ صاحبه)، ولاريب أنّ تهادي مسائل العلم والنصائح المسددة والكلمات النافعة القويمة هذا من خير ما يكون فيه التهادي بين أهل العلم وطلابه، ومن جاءته هدية من هذا القبيل ينبغي أن يفرح بها، وأن يُظهر أيضًا لأخيه الفرح بها، أكثر من فرح من أُهدي له شيء من المال أو شيء من مُتع الدنيا، يفرح بالعلم، لأنّ ثمرة العلم النافع وخيره عائدٌ علىٰ العبد في دنياه وأُخراه، ومنفعته له عظيمة جدًّا، فينبغي أن يفرح بها وأن يُظهر لأخيه الفرح، وأن يشكره علىٰ إحسانه إليه.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإنّ غير هذا)، يعني غير العلم، (من ماجريانات الرّكب الخبريّة)، ماجريانات الركب يعني: التحدث بين الركب في الأشياء التي تجري وتقع بين الناس، ويُعبّر عن هذا أيضًا بمَجريات الأمور، فمثل لما يلقىٰ الواحد صاحبه ويقول: جرىٰ كذا، وحصل كذا، وشاهدت كذا، وما سمعت بكذا!؟ وهل عرفت كذا؟ وأشياء كثيرة يعني يُتحدث فيها، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإنّ غير هذا من ماجريانات الرّكب الخبريّة -وإن تطلعت النفوس إليها - ففائدتها قليلة)، فائدتها قليلة، لما يلقاك شخص ويقول لك: تدري ماذا حصل اليوم!؟ ثم يُحدثك بخبرٍ النفس قد تتطلع لسماع الأخبار، لكن لو نظرت إلىٰ الفائدة والعائدة قليلة، لكن لو جاءك شخص وقدم لك فائدة عظيمة تُفيدك في دينك وفي عبادتك وفيما خلقك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأجله وأوجدك لتحقيقه، شتّان بين هذا وهذا! (فإنَّ غيْر هذا من ماجريانات الرَّكب الخبريَّة)، الإخبار عن كذا والحديث عن كذا وحصل كذا... إلىٰ غيره (وإن تطلعت النفوس إليها ففائدتها قليلة، وهي في غاية الرُّخص لكثرة جالبيها)، وأنت تعلم أنّ البضائع إذا كثر الجالب - ويعني كثر العرض وقل الطلب - ماذا يحدث للسلع؟ ترخص، إذا كان الجالب كثير، ولهذا كثرة الآن المجريات والحديث والكذا... كل ما جلس مجلس ربما القصة عشرات المرات يسمعها، والحديث أو الأحداث والأخبار عشرات المرات يسمعها، وهي قليلة النفع، العرض كثير

والفائدة قليلة، والنفع ضعيف جدًّا، ففرق بين هذا وهذا.

قال: (وإنَّما الهدية النافعة كلمةٌ من الحكمة يهديها الرجل إلىٰ أخيه المسلم)، وهذا والله تنبيه عظيم يعني من هذا النَّاصح العالم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، أن يحرص المرء في المجالس أن يبقىٰ له أثر في فائدةٍ يُهديها إلىٰ إخوانه، نصيحةٍ يقدِّمها لهم، ولا يكون المرء مباركًا أينما كان ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، لا يكون مباركًا أينما كان إلا إذا كان في كلِّ مكان كذلك، يقدِّم خيرًا، يقدم نفعًا، يقدِّم فائدة، لكن إذا كان في أكثر الأماكن التي يجلس فيها يضيِّع الأوقات بالمجريات وأشياء من هذا القبيل أين البركة؟ أين البركة والحالة هذه!؟

ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنّه يبلُغ بمرافقتهم إلىٰ مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات، فإنهم يقطعون عليه طريقه.

الآن يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وقد حثّ علىٰ الرَّفيق وأهمية الرَّفيق، قال: (ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء)، يقصد بالأموات الذين هم في العالم أحياء: العلماء، الذين بقيت سِيرهم، وبقي علمهم، وبقي نصحهم، وبقيت كتبهم، وبقيت مواعظهم ونصائحهم، وبقيت تحقيقاتهم، باقية في الأمة، يقول: اصحب هؤلاء، كن رفيقًا لهم، اصحب الصحابة، وقبلهم الأنبياء، والتابعين، اقرأ أخبارهم، اقرأ سيرهم، اعرف ما كانوا عليه من سيرةٍ عطرة وخُلُقٍ فاضل وأدبٍ عظيم، كما قال القائل:

كـرِّر علـيّ حـديثهم يـا حـادي   فحـديثهم يجلـو الفـؤاد الصـادي

هذه الرُّفقة غنيمة للإنسان، رافق، (عليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء)؛ لأنّ سِيَرهم باقية، ذكرهم الصالح في العالمين باقي، مؤلفاتهم باقية، تحقيقاتهم باقية، نصائحهم ومواعظهم باقية، خُذ الآن مثالًا علىٰ هذا الإمام ابن القيم، مات من مئات [السنين] لكن ما يكاد يمر يوم علىٰ الناس - وخاصةً طلاب العلم - إلا ويقولون: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، ما يكاد يمر يوم في مجالس كثيرة جدًّا إلا ويقولون: قال ابن القيم، ويذكرون غيره الكثير من أهل العلم، لماذا؟ ويُذكَرون كثيرًا في أشرف البقاع، في المساجد في بيوت الله، وفي أماكن العلم، وفي حلق الذكر... هذا اللسان لسان الصدق الذي جعله الله لهم هو حياة ثانية، لأنّ العمر عمرٌ هو في حياة المرء التي يعيشها إلىٰ أن تفارق روحه جسده، وهذا يُكتب، وأيضًا عُمر بعد الوفاة وهو أيضًا يُكتب، فإنّ الكتابة التي تكون للعبد أو عليه كتابتان: كتابة في حياته إلىٰ أن يموت، وكتابة أيضًا بعد وفاته ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢]، كتابتان: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ أي: في حياتهم ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ آثار المرء قد تكون في حياته، وكثير منها بعد مماته.

انظر آثار العلماء علىٰ مرّ التاريخ بعد وفاتهم، هذا كله يكتب لهم «**من دعا إلىٰ هُدىٰ كان له من الأجر مثل**

أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيء» [صحيح مسلم]، على مرّ التاريخ تكون الكتابة، ولهذا من الناس من مات من مئات السنين وهو في كل يوم تُكتب له حسنات، كل يوم تُكتب له أجور، ومن الناس من هو يمشي الآن على قدميه على وجه الأرض ولا تُكتب له أجور؛ بل يُكتب عليه أوزار! وهو حي يمشي على وجه الأرض.

فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (من أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء)، رافق أهل العلم، ارتبط بأئمة العلم، أئمة السلف، الصحابة ومن اتبعهم بإحسان... حول هذا المعنى يقول ابن مسعود - وكثيرًا ما ينقله ابن القيم ومن قبله شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في مواطن من كتبهما - أنه قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ابن مسعود: من كان مُستنًا فليستنّ بمن قد مات، فإنّ الحيّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة.

قال: (من أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنّه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات)، بالمناسبة يعني أذكر شابًّا توفي من سنوات رَحِمَهُ اللَّهُ، في شبابه كان على همة عالية أحسبه في العبادة وطلب العلم، كان يُحدثني أحيانًا عن أحد أئمة السلف المتقدمين كأنه يتحدث عن أحد أصدقائه، يتحدث عن محبته له ومرافقته له مثل ما يتحدث الواحد منا عن أحد أصحابه المقربين له، ويتكلم عنه ويروي أخباره وآثاره وسيره... قرأ له بكثرة، وأصبحت بينه وبينه رفقة ومحبة عظيمة، وكان يتطلع أن يجمعه الله به في الجنة، ورفقة كنت أتعجب من قوة الصحبة التي بينه وبين أحد السلف من التابعين - كان سمّاه لي لكنني لا أذكره الآن -، فالحاصل يعني مرافقة هؤلاء فيها أثر عظيم، أثر عظيم جدًّا على العبد في عبادته في سلوكه في أخلاقه، (وليحذر من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات)، هذا الذي هو بعيد عن العبادة وعن الطاعة وعن التقرب هذا ميت، إذا صحبه الإنسان مات معه وأثّر عليه، فـ(ليحذر من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات فإنهم يقطعون عليه طريقه.).

فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة، وأوفق له من هذه المفارقة، فقد قال بعض من سلف: شتّان بين أقوامٍ موتى تحيا القلوب بذكرهم، وبين أقوامٍ أحياءٍ تموت القلوب بمخالطتهم.

لا شك شتّان بين هؤلاء وهؤلاء، (شتّان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم يعني بذكرهم)، يعني بذكرهم: ذكر سيرهم ذكر أخبارهم ذكر مواعظهم ذكر نصائحهم وتوجيهاتهم... ولهذا كم من أناس استقاموا في أزمنة متأخرة بهدايات أقوام ماتوا في أزمنة سابقة، سمع موعظة ونصيحة لأحد الأئمة، أو قرأ له كتاب فغيّره، غيّره وأثّر فيه تأثير، وكنت في رمضان بدأت بكتابٍ لهذا الإمام - كتاب «الداء والدواء» - وحشت على أشياء كثيرة حول هذا الكتاب للاستفادة منه، حتى تكون معاونة على الخلاص من الذنوب التي أهلكت الكثير في

هذا الزمان، لتفتُّح الأبواب وتشعبها وكثرة الوسائل، فهذا الكتاب بحاجة الناس إليه، والحمد لله يعني نحمد الله ﷻ من هذا المكان انطلق خير كثير في هداياتٍ مستفادة من الإمام ابن القيم رحمة الله عليه في هذا الكتاب، ولم يتيسر إكماله ونبدأ بإكماله بإذن الله ﷻ مع بداية الفصل الدراسي القادم - يعني بعد أسبوعين تقريبًا - في هذا المكان بعد صلاة الفجر.

فما علىٰ العبد أضرّ من عشرائه وأبناء جنسه، فإنّ نظره قاصر، وهمّته واقفةٌ عند التشبه بهم ومباهاتهم والسلوك أيّةً سلكوا.

(أيّةً سلكوا) أي: أيّ شيء سلكوا! وفي بعض النسخ (أيًّا سلكوا)، كلهم معناه مستقيم.

واقفةٌ عند التشبه بهم ومباهاتهم والسلوك أيّةً سلكوا، حتىٰ لو دخلوا جحر ضبٍّ لأحبّ أن يدخل معهم.

يعني (ما أضر علىٰ) الإنسان (من عُشرائه وأبناء جنسه)، لأن الناس الإنسان يعني أَلِف بالتشبه بأبناء جنسه، فإن كان نظره إلىٰ عُشرائه وأقرانه ماذا يصنعون؟ ماذا كذا؟ ينشغل عن هذا الذي يتحدث عنه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، (فإنّ نظره قاصر وهمته واقفه عند التشبه بهم ومباهاتهم، والسلوك أيّةً سلكوا)، وهذا يعني واقع مُشاهد، هذا واقعٌ مُشاهد.

فمن ترقّت همّته من صحبتهم إلىٰ صحبة من أشباحهم مفقودةٌ، ومحاسنهم وآثارهم الجميلة في العالم مشهودةٌ.

أشباحهم يعني هؤلاء العلماء وأهل الفضل وأهل النُّبل (أشباحهم مفقودة)، لأنهم أموات ماتوا من سنوات مئات السنين بعضهم، (ومحاسنهم وآثارهم الجميلة في العالم مشهودة) باقية.

استحدث بذلك همةً أخرىٰ وعملًا آخر، وصار بين الناس غريبًا، وإن كان فيهم مشهورًا ونسيبًا، ولكنه غريب محبوبٌ يرىٰ ما الناس فيه، وهم لا يرون ما هو فيه.

(يرىٰ) بما آتاه الله من علم وبصيرة (ما الناس فيه، وهم لا يرون ما هو فيه) يعني: ما هو فيه من خير فتح الله ﷻ عليه به ووفقه له.

يقيم لهم المعاذير ما استطاع، وينصحهم بجهده وطاقته، سائرًا فيهم بعينين: عين ناظرة إلىٰ الأمر والنهي، بها يأمرهم وينهاهم، ويواليهم ويعاديهم، ويؤدي إليهم الحقوق، ويستوفيها عليهم، وعين ناظرة إلىٰ القضاء

والقدر، بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم، ويلتمس لهم وجوه المعاذير فيما لا يخلّ بأمرٍ ولا يعود بنقض شرعٍ، قد وسعتهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرته، واقفًا عند قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف].

نعم، (قد وسعتهم) نقف عندها، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عن هذا الذي أقبل علىٰ سِيَر السلف وأخذ يعيش معهم قراءةً وتأملًا وتدبرًا في أحوالهم وسيرهم وأخبارهم، ثم يجد أنه مع طول المصاحبة لهم قد تأثر بهم كثيرًا، وتشبه بهم، وانعكست عليه من تلك القراءة لسيرهم تأسِّيًا واقتداءً بهم، فإذا أكرمه اللهُ وبلغ لهذه المرحلة عليه أن ينظر إلىٰ من حوله من العشراء والأقران والرُّفقاء ونحو ذلك... و(يقيم لهم المعاذير ما استطاع، وينصحهم بجهده وطاقته)، لا ينظر إليهم بعين العُجْب بنفسه، وأنه وأنه... لا ينظر هذا النظر؛ لكن عليه أن ينظر بعينين - هذا كلام مهم جدًّا - ينظر بعينين: الأولىٰ عين الشرع، والثانية عين القدر، الأولىٰ عين الشرع، عين الشرع: (عين ناظرة للأمر والنهي بها يأمرهم وينهاهم)، إذا نظر إليهم بهذه العين عين الشرع يبقىٰ ناصحًا معلِّمًا موجهًا، لكن كما سيأتي بالرفق والموعظة الحسنة... (وعين ناظرة إلىٰ القدَر، بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم)، ينظر بعين القدر فيحمد الله أنّ الذي قدَّر له هو هذا الخير الذي ساقه له، وينظر إلىٰ أولئك وهذه الحال التي عليهم فينظر بعين القدر، فيرحمهم، يدعو لهم بالهداية، يدعو لهم بالتوفيق، يدعو لهم بالصلاح، يدعو لهم أن يفتح الله علىٰ قلوبهم، أن يُقبل بقلوبهم، لا يكون عونًا للشيطان عليهم.

من القصص الجميلة في هذا قصة ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول سورة غافر للخليفة الراشد عمر بن الخطاب، كان رجلًا من أهل الشام ينتاب مجلس عمر، ثم انقطع ما أصبح يأتي، فسأل عنه عمر فقال له قائل: إنه أصبح يتعاطىٰ الشراب، فأمر كاتبه عمر أن يكتب: من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلىٰ فلان ابن فلان، أحمدُ الله إليك الذي لا إله إلا هو ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر]، ثم قال لمن حوله - هذا موطن الشاهد -: ادعوا الله أن يُقبِل بقلب أخيكم، ولا تكونوا عونًا للشيطان عليه.

بعض الناس قد يكون عونا للشيطان علىٰ أخيه، إذا سمع عنه في بعض المعاصي قال: أخزاه الله! أبعده الله! وربما جاء باللعن! وربما جاء بأشياء... فأصبح عون للشيطان علىٰ أخيه، قال: لا تكونوا عونا للشيطان علىٰ أخيكم، ادعوا الله أن يُقبِل بقلبه. فوصل خطاب عمر إلىٰ ذلك الرجل، فبكىٰ وأثّرت فيه موعظة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، هو وعظه بآية واحدة من أول سورة غافر، ففهم المعنىٰ وكانت باب هداية له.

فيَنظر إلىٰ العاصي من إخوانه بعين القدر، فيرحمه ويدعو له ويستغفر له، يدعو الله له أن يُقبِل الله بقلبه، ثم ينظر له بعين الشرع فيقدم له الأمر والنهي بلطف، نصحًا وتوجيهًا وهدايةً ودلالة، لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُقبل بقلبه.

قد وسعتهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرته.

لابد من هذا، لابد أن يكون بهذه الصفة، يسع بسطته لطفه رحمته لينه رفقه تودده... لابد منها، وقد قال الله ﷻ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

واقفًا عند قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] متدبرًا لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق، وأداء حقّ الله فيهم، والسلامة من شرهم، فلو أخذ الناس كلّهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم، فإنّ العفو ما عفا من أخلاقهم، وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم، فهذا ما منهم إليه، وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف، وهو ما تشهد العقول وتعرف حسنه، وهو ما أمر الله به، وأما ما يتّقي به أذىٰ جاهلهم فالإعراض عنهم، وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها. فأيّ كمالٍ للعبد وراء هذا؟ وأي معاشرة وسياسة للعالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟ ولو فكّر الرّجل في كل شرٍّ يلحقه من العالم - أعني الشرّ الحقيقيّ الذي لا يوجب له الرّفعة والزّلفىٰ من الله - وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث أو ببعضها، وإلا فمع القيام بها، فكل ما يحصل له من الناس فهو خيرٌ له وإن كان شرًّا في الظاهر، فإنّه متولّدٌ من القيام بالأمر بالمعروف، ولا يتولّد منه إلا خيرٌ وإن ورد في حالة شرٍّ وأذًىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [النور:١١]، وقال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران:١٥٩].

نعم، لما ذكر أهمية الخلق واللين والرفق والرحمة ونحو ذلك، جاء بهذه الآية قال: واقفًا عند قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، ونبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا التنبيه العظيم أنّ هذه الآية جمعت الأخلاق، هذه الآية جمعت الأخلاق في باب التعامل مع العباد، فهي آية جامعة، حتىٰ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (لو أخذ الناس كلّهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم)، فهي كافية شافية وافية في باب الخُلق والتعامل مع العباد، وهي ترتكز علىٰ ثلاث خلال عظيمة، الإخلال بها هو سبب الهلاك وسبب الشر والجناية علىٰ النفس والمضرة بها، فهي ترتكز علىٰ أمور ثلاثة ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنىٰ العفو قال: (ما عفا من أخلاقهم، وسمحت به طباعهم، ووسعهم بذله)، هذا الآن الذي يتحدث عنه هل الناس فيه علىٰ درجة واحدة؟ هل يُنتظر أن يكونوا فيه علىٰ درجة واحدة؟ لا، الناس معادن وأجناس وأصناف في أخلاقهم، فهل أنت تنتظر في كل من تلقاه أن يكونوا قمة في الخلق والتعامل؟ لن تجد، ولن يحصل هذا، لا من أهل، ولا من ولد، ولا من جار، ولا من قريب، ولا من

زميل... يتفاوتون، إذًا ماذا عليك؟ قال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ خذ ما (سمحت به طباعهم)، وكلٌّ وطبعه، هذا تأخذ منه شيئًا جميلًا تحمده عليه، وآخر تأخذ منه شيئًا تصبر عليه، هذا يحتاج إلىٰ حمد علىٰ معاملة قدمها، وآخر يحتاج إلىٰ صبر، وهذا كله من أخذ العفو، الذي هو ما تسمح به الطباع، هذا يلاقيك بجميل الطباع والأخلاق، وآخر يلاقيك بأمور أخرىٰ، وكلٌّ يحتاج إلىٰ أسلوب من أساليب الأخذ المشار إليه في الآية ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾.

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ كن دائمًا ناصحًا مقدِّمًا الخير باذلًا الخير، ديدنك دائمًا ومسلكك...

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ لا تُجابه وتقابل الجاهل بمثل جهله؛ بل أعرض عنه تسلم، إن وقفت وجهًا لوجه وكلامًا بكلام ونطقًا بنطق وردًّا برد... تعبت وتأذيت، وجاءتك أمور ما تحتملها من الشرور، لكن إن أعرضت سلمت، وهذا الذي أمرك الله به قال: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾.

يقول: (لو فكر الرجل في كل شر يلحقه من العالم - أعني الشر الحقيقي الذي لا يوجب له الرفعة والزلفىٰ من الله - وجد سببه الإخلال بهذه الثلاثة أو ببعضها)، إذن هذه الثلاث أخلاق عظيمة جدًّا ومهمة للغاية، ينبغي أن تكون ركيزة للمسلم في تعاملاته كلِّها.

وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حقّ الله وحقّ الخلق، فإنهم إمّا أن يسيئوا في حقّ الله أو في حقّ رسوله، فإن أساءوا في حقّك فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في حقّي فاسألني أغفر لهم وأستجلب قلوبهم، وأستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم، فإنّ ذلك أحرىٰ في استجلاب طاعتهم وبذلهم النصيحة، فإذا عزمت علىٰ أمرٍ فلا استشارة بعد ذلك، بل توكّل علىٰ الله، وامض لما عزمت عليه من أمرك، فإنّ الله يحبّ المتوكلين.

نعم، يعني الآن الإساءة إذا وقعت، يقول: (إن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفو عنهم، وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم واستجلب قلوبهم)، يعني انظر الآن الوصية: إن أساءوا في حقك أنت فقابل ذلك بالعفو، اعف عنهم لوجه الله، وتقرب إلىٰ الله بالعفو، وإن أساءوا في حق واحد من إخوانك لا تحرص علىٰ أن تُثير فتنة بين المُسيء والمُساء إليه، بعض الناس لا يُوفق يأتي إلىٰ المُساء إليه ويقول: ما سمعت فلان ما ترك شيء إلا وكذا! فيُوجِد يعني شيئًا بينهم، فابن القيم يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإن أساءوا في حقّي فاسألني أن أغفر لهم، وأستجلب قلوبهم)، يعني انظر الطريقة التي تتلطف فيها حتىٰ يحصل الخير ويتحقق الصلاح والنفع والفائدة، قال: (وأستخرج ما عندهم من الرأي بمشورتهم، فإنّ ذلك أحرىٰ في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة)، هذه أيضًا لطيفة، يعني مَن تُعامِل إذا وَجَدَكَ تُشركه في الأمور، تستشيره، تُحدث استشارته لك طمأنينة عندك، ولما يقول لك: أحب أسمع رأيك، يعجبني رأيك، حتىٰ لو لم يأخذ به، لكنه يعني يجعل لك شيئًا من القيمة والاعتبار،

إذا قدم لك هو من بعد ذلك نصحًا وقع موقعه في النفس، وأصبح له الأثر والنفع والفائدة، الأمور الواضحة التي عزمت عليها استشرت وعزمت عليها (توكل علىٰ الله، امضِ لما عزمت عليه من أمرك، فإنّ الله يحب المتوكلين)، يعني لا يثنيك أحد عن ما عزمت عليه من خير.

فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدّب الله بها رسوله ﷺ، وقال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

(هذا وأمثاله) يعني من الآيات التي أشار إليها، (من الأخلاق التي أدّب الله بها رسوله ﷺ وقال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾)، ولهذا من الأبحاث اللطيفة - ولا أدري هل كُتب في هذا أو لم يُكتب - من الأبحاث اللطيفة أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام في القرآن، لأنك تجد في القرآن آيات كثيرة تصف خُلُق النبي عليه الصلاة والسلام، هذا من جهة، جهةٍ أخرىٰ يشير إليها ابن القيم هنا رَحِمَهُ اللَّهُ، وهي أنّ كلّ خُلقٍ دعا إليه الله في القرآن فهو ماذا؟ في الرسول عليه الصلاة والسلام تامًّا وافيًا، مثل ما قالت عائشة: «كان خُلقه القرآن»، فلا يوجد في القرآن خُلق من الأخلاق العظيمة الآداب الكاملة إلا والنبي ﷺ مُتحلّ به علىٰ أتم ما يكون، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب].

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كان خُلقه القرآن**» [صحيح الجامع]، وهذه لا تتمّ إلا بثلاثة أشياء: أحدها: أن يكون العود طيبًا، فأما إذا كانت الطبيعة جافيةً غليظةً يابسةً عسر عليها مزاولة ذلك علمًا وإرادةً وعملًا، بخلاف الطبيعة المنقادة اللّينة السّلسة القِياد، فإنها مستعدّةٌ إنما تريد الحرث والبذر.

من كانت طبيعته كما وصف ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فلا ييأس أيضًا، لا ييأس؛ لأنّ بعض الناس سبحان الله في هذا الباب يُيئّس نفسه ويُقنّطها، وتجده يعني يمضي في بعض الأخلاق الرديئة وهو لايزال يقول لنفسه: هذا طبع لا ننفك عنه، حتىٰ إن بعضهم يقول: كل القبيلة هكذا طبعهمّ وهذا طبع لا ننفك عنه، فيُيئّس نفسه ويُقنّطها، فتبقىٰ متردية في هذا الخُلق الذميم، فلا ييأس، وليذكر في هذا المقام قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ**» [صحيح الجامع]، فلا ييأس يجاهد ويدعو، يجاهد نفسه ويدعو ربه: اللّٰهُمَّ «**اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سَيّئها لا يصرف عني سَيئها إلا أنت**» [صحيح مسلم].

الثاني: أن تكون النفس قويةً غالبةً قاهرةً لدواعي البطالة والغَيّ والهوىٰ، فإنّ هذه أعداء الكمال، فإن لم تَقْوَ

النفس علىٰ قهرها وإلا لم تَزَل مغلوبةً مقهورةً.

نعم، يحتاج إلىٰ يعني همة عالية، نفس قوية مثل ما يقول ابن القيم: يحتاج إلىٰ - في أحد كتبه - إلىٰ علم يهديه، وهمة عالية تُرقّيه. يعني يحتاج إلىٰ همة قوية تُرقّيه في دروب الكمال والفضل والخير، وفي الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشْدِ**» [السلسلة الصحيحة]، أحيانًا يكون الأمر رشد واضح أمام الإنسان لكن ما عنده عزيمة، ما عنده همة، يراه واضحًا لكن الهمة رديئة ضعيفة، فيحتاج في هذا المقام (أن تكون النفس قوية غالبة قاهرة لدواعي البطالة والغي والهوىٰ)، حتىٰ تغلب هذه الدواعي، قوة النفس وقوة الهمة تغلب هذه الدواعي، إن لم تكن قوية ماذا يحصل؟ هذه الدواعي هي التي تكون لها الغلبة عافانا الله أجمعين.

❀❀◊❀❀

الثالث: علمٌ شافٍ بحقائق الأشياء، وتنزيلها منازلها، يميز به بين الشّحم والورم، والزجاجة والجوهرة.

يعني مثل ما نقلت لكم عبارته في أحد كتب: علم يهديه. يحتاج الإنسان إلىٰ علم حتىٰ يكون في سيره علىٰ معالم واضحة وطريق بينة، لأنّ من لا علم نافع عنده يهتدي به تشتبه عليه الأمور، مثل ما قال: لا (يميز بين الشحم والورم، والزجاجة والجوهرة)، ما يميز بينهم، فالعلم هو الذي يميز به بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل، والسُّنة والبدعة... كل هذه الأشياء ما يُميَّز بينها إلا بالعلم، ولهذا في الدعاء المأثور الذي كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقوله كل صباح بعد صلاة الفجر بعد أن يُسلم: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**» [صحيح ابن ماجه]، بدأ بالعلم النافع لأنّ العلم النافع هو الذي يُميز به المرء بين الرزق الطيب وغير الطيب، وبين العمل الصالح وغير الصالح، إذا لم يكن عنده علم نافع كيف يُميّز؟ إذا لم يكن عنده علم كيف يعرف الهُدىٰ من الضلال والحق من الباطل!؟ فهو يحتاج إلىٰ علم يهديه هذا (الثالث)، ويحتاج إلىٰ همة تُرّقيه وهذا (الثاني)، ويحتاج إلىٰ العود الطيب والطبيعة الطيبة، لكن كما قلت حتىٰ لو وجد من نفسه في ذلك - يعني يبوسة في الطبع ونحو ذلك - لا ييأس، بل بالمجاهدة والدعاء يتحقق الخير، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت].

❀❀◊❀❀

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاثة، وساعده التوفيق، فهو من القسم الذين سبقت لهم من ربهم الحسنىٰ، وتمّت لهم العناية.

(إذا اجتمعت للعبد هذه الخصال الثلاثة) التي ذكرها آخرًا رَحِمَهُ اللَّهُ، (وساعده توفيق) الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن وفقه الله، (فهو من القسم الذين سبقت لهم من ربهم الحسنىٰ)، لأن المَردّ إلىٰ التوفيق توفيق الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا

ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء:١٠١]، أي: فيما كتب وقدّر وقضىٰ ﷻ، ولهذا كان كثيرٌ من السلف يخاف من السوابق والخواتيم، السوابق مثل ما في هذه الآية، وأيضًا في الحديث: «**إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**» [متفق عليه]، ولهذا دائمًا العبد يرجو التوفيق من الله، ويطمع في التوفيق، ويسأل الله الهداية والثبات، ويستعيذ به ﷻ من زيغ القلوب ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران]، **فاللجوء إلىٰ الله استعانةً وتوكلًا**، والمجاهدة للنفس بهذه الأعمال والخصال التي أشار إليها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

وهؤلاء هم القسم الأوّل المذكورون في قول النبي ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم» الحديث، وقد تقدم.

الحديث تقدم عند المصنف، وأيضًا تقدم له رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ شرح وافٍ ونافع لهذا الحديث، بقي الفصل الأخير من هذه الرسالة العظيمة، موعدنا معه بإذن الله ﷻ يوم الأحد القادم بإذن الله.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تبارك وتعالىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.